العرب
الأحد 2021/07/04
السنة 44 العدد 12109

السيسي الضامن الوحيد للأمن والاستقرار في مصر

تعويل المصريين على دور الرئيس في معالجة أزماتهم يكشف ضعف أجهزة الدولة

رئيس يحظى بثقة الشارع

شكلت الذكرى الثامنة لثورة الـ30 من يونيو التي احتفل بها المصريون منذ أيام فرصة لتقييم أداء الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي الذي نجحت أدارته في تقويض مناورات الإخوان وخطط المتطرفين. وبحسب رأي الشارع فإن نجاح السيسي في استرجاع الأمن والاستقرار وتركيزه على المشاريع القومية عززا الثقة في أدائه ويمنحانه شعبية واسعة، لكن في المقابل يكشف الاكتفاء بدور الرئيس في معالجة الأزمات عن ضعف أجهزة الدولة وعدم الوثوق في مسؤوليها ما قد يعرّضها في أي لحظة إلى الجمود والشلل.

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

حوى الفيلم الوثائقي "القرار" الذي أذاعته قنوات مصرية الأربعاء الماضي وأعادت إذاعته في الأيام التالية على المشاهدين الكثير من المشاهد والحكايات التي تؤكد في محتواها أن الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي كان ولا يزال هو الضامن للأمن والاستقرار الوحيد في البلاد، وأسرف القائمون عليه في التناول للدرجة التي يمكن أن تؤثر سلبا على صورته الذهنية بسبب كثافة التكرار كنوع من إثبات الولاء.

جاءت العبارة الرمز بوضوح على لسان الإعلامي إبراهيم عيسى الذي احتل مساحة كبيرة في الفيلم وجرى تقديمه بوصف "المفكر الكبير"، وليس مهما أن يكون مفكرا كبيرا أم صغيرا، لكن المهم أن العبارة التي قالها بشأن السيسي حقيقة من وجهة نظر قطاع كبير من الناس افتقدوا الأمن بعض الوقت وكانوا سيعانون من عدم الاستقرار كل الوقت إذا نجحت التنظيمات الإرهابية في جر مصر إلى خندق الحرب الأهلية.

لا أعلم هل نطقها عيسى على سبيل إقرار واقع في المشهد المصري فقط واعتراف بجميل الرئيس الذي لا ينكره المواطنون، أم أراد دق جرس إنذار للمضامين البعيدة التي تحملها العبارة ورسائلها البعيدة، فأن يكون شخص واحد هو الضامن وليس مؤسسات الدولة العريقة فهذا فخ، فالإعلامي بفطنته وحنكته وذكائه حاول التنبيه إليه قبل فوات الأوان، وربما منعه المكان والزمان والوسيلة من الاستطراد في المحاذير، أو تركها هروبا وخجلا ليفهم منها كل مشاهد ما يريد فهمه.

يستمد الرئيس المصري شعبيته من زوايا كثيرة، أهمها دوره المحوري في تقويض المتطرفين، حيث استطاع توفير جملة من مقوّمات الأمن عقب الإطاحة بجماعة الإخوان من كرسي الحكم عبر ثورة شعبية عارمة، وخوضه حربا قاسية في الداخل والخارج لمحاصرة الإرهابيين، وجهوده الرامية لإنجاز حزمة من الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية، علاوة على تطوير القوة العسكرية اللازمة لحماية الدولة.

> ربط كل كبيرة أو صغيرة في الدولة بشخص واحد وهو رئيس البلاد، يمكن أن يصيبها في لحظة معينة بالجمود والشلل

حفلت الأدبيات الإعلامية والسياسية في الذكرى الثامنة لثورة الـ30 من يونيو قبل أيام بالحديث عن مسألة الأمن والاستقرار وربطه بالرئيس السيسي، وعلت على غيرها من القضايا، وهو حق يمكن أن يحمل الكثير من معالم الخطورة.

يعيد تكرار هذا الحق أخطاء سابقة شهدتها فترة حكم الرئيس جمال عبدالناصر خلال حقبتي الخمسينات والستينات من القرن الماضي عندما جرى رهن الحاضر والمستقبل به وتعلق الناس بشخصيته الكاريزمية، ثم فوجئوا بحرب يونيو 1967 الكارثية وغيابه، وبدا كل شيء كأنه انهار تماما، إلى أن قام خلفه الرئيس أنور السادات بضبط دفة الأمور وترتيب الأوضاع واستعادة التوازن.

تصعب المقارنة بين المرحلتين لأسباب تتعلق بطبيعة التحديات فكل مرحلة زمنية لها طقوسها ومعاييرها ورجالها، ومفهوم الأمن والاستقرار نفسه تحقق في الداخل في عهد عبدالناصر وتحقق بشكل أكبر في عهد السيسي في الداخل والخارج معا على الرغم من الأزمات الإقليمية التي تحيط به الآن، وتصعب أيضا المقارنة في عناصر القوة المعنوية والمادية والتي يمكن أن تكون جزءا من الجدل والخلاف الصامت بين المصريين، غير أنها في كل الأحوال تميل إلى صالح السيسي.

ما يعرفه الكثير من المتابعين أن المؤسسة العسكرية الضاربة في العمق المصري هي الضامن الفعلي للأمن والاستقرار، وخرج منها الرئيس السيسي ومن قبله عبدالناصر والسادات ثم حسني مبارك، والرئيس الوحيد الذي جاء من خارجها في العهد الجمهوري هو الإخواني محمد مرسي وكاد العام الذي تبوأ فيه السلطة أن يؤدي إلى انعدام الأمن والاستقرار وتهديد أركان الدولة.

قد يقول البعض إن مرسي لم يمنح فرصة كاملة للحكم عليه، وهي فرية تستخدم للنيل من شرعية نظام السيسي وليس للدفاع عن نظام الإخوان الذي كان العام الوحيد يكفي لاكتشاف حقيقة نوايا الجماعة السياسية، حيث أرادت تمكين عناصرها من كل مفاصل الدولة دون إلمام بخصوصية المؤسسات المصرية المتجذرة في المجتمع، فقد سيطرت عليهم فكرة الاستحواذ والهيمنة بعيدا عن متلازمة الأمن والاستقرار التي تعد محور حياة المصريين بكل ألوانهم السياسية والدينية والاجتماعية.

بات السيسي رمزا لاستعادة الروح الوطنية وقطع الطريق على من حاولوا بعثرة الأمن، وهو ما تعزف عليه وسائل الإعلام المصرية التي لا ترى سواه في منظومة الحكم، الأمر الذي يثير القلق، فالتركيز عليه ولو كان من باب الاعتراف بدوره الملموس ينطوي على تحميله فوق طاقته، لأن ربط كل كبيرة أو صغيرة في الدولة بشخص واحد يمكن أن يصيبها في لحظة معينة بالجمود والشلل.

هناك تفاصيل كثيرة في الحياة اليومية للمصريين تؤكد أن كل شيء في الدولة أصبح مرهونا بالسيسي، بما يخرج عن نطاق المركزية المتجذرة في مصر، فحال الإعلام المتراجع لا يتم الالتفات إليه إلا إذا اشتكى الرئيس منه، وأداء بعض الوزراء يظل متكلسا ولا يتم ضبطه إلا عندما يتحدث عن العيوب الظاهرة أمامه، وهكذا تبدو منظومة الإدارة في غالبية أجهزة الدولة مرتبطة بملاحظة من السيسي أو انتقاده، ووصل الأمر إلى التدخل في قضايا فنية دقيقة يسعى لمتابعتها بنفسه، وهو ما يشير إلى عدم الثقة الكاملة في منظومة الإدارة الهيراركية أو الهرمية المدنية.

وقاد ذلك إلى مطالبة السيسي بتخصيص 4800 ضابط جيش من رتب مختلفة لتوزيعهم على القرى المصرية لمتابعة تنفيذ برنامج "حياة كريمة" الخاص بتخفيف معدلات الفقر الذي أصبح من أبرز المخاطر التي تهدد الأمن والاستقرار في الداخل.

قد يكون المسؤولون في مصر يريدون تعزيز الانتماء للنظام الحاكم وتنفيذ توجيهاته حرفيا، لكن هذا الانتماء قد يفضي في المقابل إلى اتكالية كبيرة تنعكس في النهاية بصورة سلبية على الأمن والاستقرار، حيث يظل وجدان الناس يغلي من تراكم الأزمات، ويستمرّ الجمود إلى أن يتدخل السيسي بزيارة أو إشارة لتذليل كل العقبات.

لذلك بدأت استغاثات الناس تتجه مباشرة إلى الرئيس المصري عندما تكون هناك مشكلة عامة أو شخصية، وهي من العلامات التي تعني الشك في الجهاز الإداري للدولة، وعدم الوثوق في المسؤولين الكبار والصغار بما يضعف دور كل من يريد العمل بجدية ويكبح الطموحات، بل وتظهر السيسي كعصا سحرية تحقق كل الأحلام.

غرست وسائل الإعلام هذا الانطباع في شريحة كبيرة من المواطنين، فالتركيز الشديد على الزيارات الميدانية التي يقوم بها الرئيس لأماكن مختلفة وتسليط الضوء على الأبعاد الإنسانية فيها جعل البسطاء يتطلعون إلى الأماكن التي يمكن أن يذهب إليها كوسيلة لحل مشاكلهم مباشرة من دون تعقيدات إدارية، ما ضاعف من ارتباطهم به وأنه الوحيد الذي يرمز للأمن والاستقرار بالمفهومين العام والخاص.

عقلنة حماس وغطرسة عباس

علي الصراف
كاتب عراقي

نعم، لحماس تاريخ أسود في العلاقة مع باقي الفصائل الفلسطينية، وأيديها ملوثة بدماء فلسطينيين لم يوافقوها على سلطتها، وهي تنظيم ذو طبيعة أيديولوجية صماء، وتعاني من سيكولوجيا انتحارية تنعكس على سلوك قياداتها وعناصرها. كما أنها تملك الحق كله، ولا تصدق أن الآخر يعرف الحق أصلا. وتمارس ألعاب نفاق مع مصر، وترتبط بإيران رغم معرفتها بأنها ليست أقل سوءا من إسرائيل وأنها قتلت وشردت في 10 سنوات أكثر مما فعلت إسرائيل في 75 عاما.

وتجد حماس لنفسها مبررا يصلح لفعل الشيء وعكسه كغيرها من جماعات الإخوان. وهي ليست مما يمكن الرهان عليه في إدارة قرية من عشرين منزلا، لأنها سوف تهدم نصفها، وتسجن الباقين. إلا أن عقلنتها أسهل من محاولة إصلاح غطرسة الرئيس عباس.

وهي مفاوض أفضل منه، ومسالكها المجنونة تنفع وتضر، إلا أن مسالك سلطة الرئيس عباس تضر ولا تنفع. وفي حماس من الفساد ما يزكم الأنوف، إلا أن سلطة الرئيس عباس هي الفساد نفسه. وحماس ترفع شعارات غير معقولة، ولكنها تصدقها، بينما ترفع سلطة الرئيس عباس شعارات معقولة، ولكنها لا تصدقها.

وتقيم حماس نظاما إداريا فاشلا يعتمد على المساعدات الخارجية بسبب الحصار، بينما لا تقيم سلطة الرئيس عباس أي نظام، وتعتمد على المساعدات الخارجية من دون حصار. وإذا كان لك في حماس رأي آخر، اعتبرتك كافرا وظلت تنتظر أن تستغفر إسماعيل هنية ليرضى عنك الله، بينما ترسل لك سلطة الرئيس عباس من يطلق عليك النار أو يقتلك بالهراوات وأنت في فراشك، من قبل أن تجد وقتا لكي تقول لا إله إلا الله. وأيدي حماس ملوثة بدماء فلسطينيين وإسرائيليين، إلا أن أيدي سلطة الرئيس عباس ملوثة بدماء فلسطينيين فقط.

يقول لنا ذلك إن الفلسطينيين يعيشون في ظل وضع موبوء إما بالقهر أو بالفشل. وهناك من يعتقد أن القهر أرحم قليلا من الفشل الذي لم تقترح سلطة الرئيس عباس سواه.

حماس تنظيم سياسي يمتلك نوافذ تطل تارة على الإرهاب، كما تطل تارة أخرى على البحث عن سبيل للتعايش، وتقبل الهدنة من حين إلى حين بعد أن تحرّض إسرائيل على قصف القطاع ردا على ما تطلقه هي من صواريخ ضجيجها أكبر من أدائها. بينما فتح الخاضعة للرئيس عباس لا تملك نوافذ تطل على أي شيء أصلا. وإسرائيل لا تقصف الضفة الغربية رأفة بالفلسطينيين الذين يعيشون تحت سلطة هي التي تقصف أعمارهم، تارة بالوباء، وتارة أخرى باللقاحات المنتهية الصلاحية، كما تقصف أراضيهم بالتهاون (تحت الشعارات وفوقها) مع توسع عمليات الاستيطان.

وتمتلك حماس، لأسباب شعبوية، دوافع للغضب ضد الاحتلال، بينما لا تستشيط سلطة الرئيس عباس غضبا إلا على الفلسطينيين الذين يتهمونها بالفساد.

ولقد أظهرت حوارات القاهرة أن حماس تستطيع التفاهم مع غيرها على بعض أسس، ولكن أظهرت سلطة الرئيس عباس في تلك الحوارات أنها لا تستطيع التفاهم حتى مع نفسها ولا تنفذ ما توافق على تنفيذه. وعندما انقلب الرئيس عباس على الانتخابات التشريعية، فقد أثبت أنه لا يثق حتى بأصبعه.

هذا هو الحال. وصار لزاما على الفلسطينيين أن يقعوا بين فكي الرحى، ليتم طحنهم إما بالأكاذيب والأوهام، وإما بأعمال الفساد والاستبداد.

وهم في خيار دائم بين السيء والأسوأ منه، وكأن الله لم يترك للعاقل منهم أي خيار. ولولا أن الأمل ما يزال معقودا على جيل جديد من شباب فلسطين الباحثين عن الحرية والتغيير والقادرين على فهم ما يحيط بهم من دون أن يلبسوا له نظارات تغير لهم الألوان، لقلت أن اذهبوا لتمنحوا كل السلطة لحماس. سوف تُهدم نصف منازلكم، ولكن سيبقى بعض الأمل حيا. لأنها في النهاية تنظيم سياسي يريد أن يحتفظ بقدرته على البقاء، وقد يتعقلن، بينما سلطة الرئيس عباس تنظيم فردي يمارس سلطته بجنون القناعة أنه هو ولا أحد سواه. وهو يحكم ليس برضى الفلسطينيين ولكن برضى غيرهم.

إنه حال ليس كمثله حال.

والخصومة بين فكي الرحى تجعل التوصل إلى حل أو تسوية أو سلام مستحيلا، لأن العداوة بينهما تعيق القدرة على استبيان الطريق.

ولقد كشفت الاستعدادات للانتخابات عن 34 قائمة غير قائمتي فتح الرسمية وحماس، ليقول الفلسطينيون من خلالها إنهم قرفوا من ثنائية الخراب التي تقترحها عليهم فكّتا الرحى، وإنهم بحاجة إلى سلطة تُصغي إليهم لا سلطة تُملي عليهم.

> هناك بصيص أمل. لو أجريت انتخابات وسقطت السلطتان، أو لو أن حماس تعقلنت في السلطة، واضطرت إلى التحاور أو الشراكة مع قوائم فلسطينية أخرى، وانتهت فتح عباس إلى حيث يرحل عباس، فإن حطام فك الرحى الأول سوف يدفع إلى حطام الفك الثاني أيضا

والأنظار تتسلط على هروب الرئيس عباس من الاستحقاق الانتخابي خوفا من الهزيمة. ولكن من قال إن حماس لم تهرب أيضا؟ هل سمع أحد أنها تمسكت بإجراءات الانتخابات وأصرت عليها؟ لقد اكتفت بالتنديد لتكسب ورقة إضافية، إلا أنها رضيت من الناحية العملية بالقرار وتواطأت على القبول به، لأنها كانت تخشى الخسارة أيضا.

ولقد أثبتت سنوات الانقسام أن هاتين السلطتين بحاجة إلى بعضهما، وهما باقيتان على صدور الناس بفضل الانقسام نفسه، ولا يناسبهما وجود سلطة وطنية موحدة. لأن إحداهما سوف تخسر بكل تأكيد. وهو ما لا يفيد الأخرى، إذ تسأل نفسها: من هو إذن العدو الذي سنحاربه؟ وما هي الذريعة التي تبرر لنا التمسك بما لدينا؟

ولكن هناك بصيص أمل. لو أجريت انتخابات وسقطت السلطتان، أو لو أن حماس تعقلنت في السلطة، واضطرت إلى التحاور أو الشراكة مع قوائم فلسطينية أخرى، وانتهت فتح عباس إلى حيث يرحل عباس، فإن حطام فك الرحى الأول سوف يدفع إلى حطام الفك الثاني أيضا.

التخلص من بعض الطغيان قد يفتح الطريق إلى التخلص من بعضه الآخر. فساعة يختبر الفلسطينيون قوتهم بالانتخاب، ويعرفون ما معنى قدرتهم على التغيير، فإنهم في النهاية سوف ينتخبون سلطة تصغي إليهم.

الغطرسة داء لا شفاء منه. وقد أصاب سلطة عباس حتى أصبح سرطانا يجيز لها قتل من يعارضها بتلك الوحشية التي قُتل بها نزار بنات. وليست حماس سوى فضيحة. وهي بحاجة إلى ستر. هذه الحاجة هي التي تملي عليها أن تتعقلن لكي تتسع قدرتها على البقاء. ولكن سلطة الفشل التي سوف تنتهي إلى إقامتها ستكفل أن تزيل الستر عن الأبصار، لترى ما غاب عنها.

إنه حال، لا يتغير إلا بحال ينفلت كليا من طوق الرحى.